الباحثون الإيطاليون ودراسة التاريخ العربي

للمستعرب الإيطالي الأستاذ أومبرتو ريتسِتانو
ترجمه عن الإيطالية: عيسى الناعوري
(الأمين العام لمجمع اللغة العربية الأردني)

تمهيد

هذه المراجعة الموجزة لمشاركات الباحثين الإيطاليين في حقل (التاريخ العربي) خاصة لا تشمل الإشارة إلى المؤلفات ذات الطابع السياسي والديني، لأن ذلك أكثرُ اتصالاً بموضوع الإسلام بحدوده الواسعة – والدراسات الإسلامية تدخل في نطاق ما يدعى باسم "الاستعراب الإسلامي"، الواسع الاستعمال– غير أن وجود فصل في هذا البحث حول (الدراسات الإسلامية)، كان القصد منه أن يَحُول دون أي تحديد لا إرادي قد يقع عند الحديث عن حضارة – كالحضارة العربية الإسلامية– كثيراً ما يتعذّر معها فصل المسيرة التاريخية عن تطوّر العقيدة ونموّها.

وبالنسبة إلى الأساس الذي سرنا عليه في تقديم المعلومات هنا، نذكر أنه، من أجل ترتيبٍ أفضلَ لهذه البحث، كان لا بدّ من التضحية بالتسلسل التاريخي للمشاركات الفردية المختلفة، حفاظاً على تسلسل الفترات التي أَلِفْنا تحديدها زمنيًّاً؛ وأعني أن تلك الفترات التي تبدأ بالعهد الجاهلي، ثم تمرّ بالنبي محمد، وخلفائه

الراشدين الأربعة، والخلافة الأموية، ثم العباسية، إلى سقوط الخلافة في بغداد عام ١٢٥٨، قد تلاها الانحطاط، أو الركود، الذي غلب على العرب حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حين بدأت في بعض الأقطار العربية، الأفريقية والآسيوية، تباشير عهد النهضة. وعند عصر النهضة يتوقف حديثنا.

* * *

حَوْلِيّات الإسلام:

في الوقت الذي تتناوله مراجعتنا الموجزة هذه، من حيث الترتيب الزمني، تَبْرُز بين المستعربين الإيطاليين والأوروبيين شخصية عملاقة، هي شخصية ليوني كائيتاني. ففي الأعوام التي تَلَت الحرب العالمية الأولى مباشرة، نجده ينصرف من جديد إلى عمله في (حَوْلِيّات الإسلام) التي كان قد انقطع عنها بتطوُّعه في الجيش. ونحن نحيل من يَوَدّون معرفة شيء عن أسرة كائيتاني الشهيرة، وابنها العبقري الفذّ، إلى كتاب فرانشيسكو غبرييلي: (آخر آل كائيتاني)، كما نقترح على من يدفعهم الفضول إلى معرفة البيئة التي وُلِدَت وتطوَّرت فيها تلك (الحوليات) أن يقرأوا – إن لم يقرأوا بعد– الصفحات الرائعة ذات الطعم الغَسَقِيّ، التي كَرَّسها جورجيو ليفي ديلّا فيدا في كتابه (سقف الحوانيت المظلمة)، ففي هذا الكتاب اهتمّ ذلك العالم باللغات السامية والمؤرخ الشهير للإسلام، بالأصالة والدِقّة اللتين عُرِفَت بهما أبحاثه، بأن يُبْرِز المزايا العديدة والهَنات الضئيلة لعمل كائيتاني الجبار، وللنتائج العميقة والحواشي النيّرة التي اَلَّفَتْ معاً تحليلاً ناقداً من أدقّ الأعمال التحليلية وأصوبها. وقد أوصله إلى ذلك اطّلاعُه التاريخيّ والدينيّ العجيب، وكذلك ما لا يجوز إغفاله من أنه كان، هو وبعضُ المستعربين الآخرين، بين الذين تعاونوا في العمل مع كائيتاني تعاوناً فعالاً. ولهذا نرى أنّ من الادّعاء الذي لا يُغْتَفَر أن نحاول إضافة شيء أفضل أو أكثر مما جاء في الكتابين المشار إليهما؛

ونعترف باستحالة فحص كل محتويات (الحوليات)، لأن هذا لا يستطيعه إلاّ مَن قرأ قراءةً كاملة كلّ الصفحات ألـ ٧٠٠٠ من تلك الحوليات. ولذلك نكتفي بأن نذكر في هذا المقام ضمن أية حدود زمنية وتاريخية يَجري القسمُ الأكبرُ من عمل ذلك المؤرخ، دون أن نتغاضى عن إبراز بعض مزاياه الكثيرة، رغم ما نخشاه، بل نحن واثقون منه، من تكرار ما أحسَنَ كتابَتَهُ ليفي ديلّا فيدا وغبرييلي.

ونحن نتّفق تماماً مع ليفي ديلا فيدا في اعتبارنا أنه "إذا كانت أُولى نوايا كائيتاني التفكير في جعل عمله يقتصر على جمع المواد وعرضها، فهو خلال ذلك قد شعر بدافع لا يُقاوَم إلى التمحيص والبِنَاء، فأضاف بذلك إلى عملِ جامعِ الوقائع عملَ المؤرخ". والواقع أنه منذ الجزء الأول الخاص بتاريخ العرب في الجاهلية، وقسمٍ لا بأس به من سيرة الرسول، بدأ جليَّاً أن كائيتاني كان يعتزم أن يجعل عمله أكثر اتساعاً وإحاطةً مما كان العنوان يسمح بافتراضه. وهذا التمحيص للمصادر الذي التزم به المؤرخ منذ البداية ازداد دقة في الأَجزاء التالية التي زوَّدها بكثير من التنبيهات الصغيرة والمفيدة، وذات الطابع البنائي. ولقد شَجَّعه ما لقيه من تأييد كبار الباحثين، ولم يُثَبِّط همته ما لقيه أحياناً من النقد الذي لا بدّ منه. ومضى كائيتاني يعمل بهمة نشطة وحماسة متواصلة في نشر الجزأين الثالث والرابع، وهو يزداد يقيناً من أن الخطّة الجريئة التي اختطّها ليجمع في عشرة أجزاء أحداث ما يزيد عن ٩٠٠ سنة من التاريخ (أي حتى احتلال العثمانيين لسوريا ومصر، سنة ٩٢٩هـ. ١٥١٧م.) كان لا بدّ من تعديلها تعديلاً أساسياً. وقد عَبَّر عن تلك الضرورة بصراحة في مقدمة الجزء الخامس حيث يقول: (إن وفرة الموادّ تستمرّ في قلب التوقّعات المتكررة حول عدد أجزاء الحوليات ... وسيجد البعض حجة لانتقاد الأبعاد التي ما تني تأخذها ... لأن استمرار العمل على قاعدة شديدة الاتساع يزيد من صعوبة إنجازه ...).

ويتبع كائيتاني تصريحه هذا بتوقُّعٍ، لا شك في أنه أكثر واقعيةً من ذلك الذي سبق أن تكوَّن لديه حين شرع في تنفيذ تلك المهمة الموسوعية، وهو أنه من الممكن أن يصل بعشرين مجلَّداً أُخرى إلى نهاية العهد الأموي. "لقد عَمِلتُ حساباً– كما يقول بعدئذ – بأنني لو استطعت الثقة من أن أعيش عشرين عاماً أخرى من العمل الجاهد، وبالمساعدة النشيطة التي يُقَدِّمها لي بعض المعاونين القديرين، فلربما استطعت أن أُقدّم للطبع نحو عشرين كتاباً مثل تلك الكتب التي صدرت حتى الآن ... مستمرّاً على غرار تلك الكتب السابقة دون تغيير في الطريقة أو النوع. إن النتيجة واضحة: فحياة إنسان بكاملها، إذا كُرِّسَت لهذا العمل، قد تبلغ بالحوليات إلى بداية الخلافة العباسية فقط، دون أن تمسَّ كلّ عصور التاريخ الأخرى ... لهذه الاعتبارات وسواها، مما أُريحُ القارئ من سرده، توصلتُ إلى أن أُقَرِّر الشروعِ في طبع كتاب آخر، تكميلي، أو على الأصح، مُكَمِّل، يَكون الصورة أو الشكل التحليلي تقريباً للعمل الأكبر ...". ومن هناك نشأت (الوقائع الإسلامية) التي استُخْدِمَتْ فيها، في موجزات إخبارية ذات صلة بتاريخ الشعوب الإسلامية، الجزازاتُ التي لا عَدَّ لها مما جمعه خلال إعداده لعمله الكبير. غير أن كائيتاني لم يستطع، حتى مع هذه المهمة الجديدة التي وقَفْتْ عند عام ١٤٤هـ/٧٦٢م، أن يُحَقِّق ما كان قد حَزَم أمره عليه من الوصول إلى حدود عام ٩٢٩هـ/ ١٥١٧م، كما كانت نيّته الحازمة، بل ظَلَّ ذلك مرةً أخرى طُموحاً وهْميّاً. ولم تكن أقلَّ وَهْماً كذلك – كما تَجَلَّى بعدئذ في ما يتعلق بالحوليات – توقعاتُ المؤرخ حول (الوقائع)، فإنه لم يُكمل بَعْدَ ذلك من عمله العظيم أكثر من خمسة أجزاء أخرى، بلغ معها العمل إلى الجزء العاشر، الذي وصل إلى سنة ٤٠هـ/٦٦١م (نهاية خلافة علي). وهذا يعني أقلّ من ثلث ما كان قد خَطَّط له بجرأة حماسية.

إن هذه الحوليات، التي أعاد كائيتاني نشر بعض موادّها في جُزْأي كتابه (دراسات في التاريخ الشرقي)، سرعان ما لقِيَتْ تقدير الأوساط العلمية الاستعرابية

وغيرها، في إيطاليا وفي الخارج، وليس فقط للعمل الجبار في جمع أكثر من مئة وخمسين مرجعاً تاريخياً، وتاريخياً أدبياً، وفَرْزها (وأغلبُها ما يزال غير مطبوع) بل لاعتبارها أيضاً مرجعاً لا مثيل له في الحقيقة، لمعرفة العهد الإسلامي الأول، وللاعتبارات النقدية والتمحيصية العديدة، والحدس العبقري، والفرضيات المغرية المنبثّة في ثنايا ترجمات النصوص أو تلخيصاتها. ولئن كانت مواقفُ الباحث المتساهلة جدّاً مع الإيجابية التاريخية، ونَقْدُه العنيد لقيمة الأبحاث التاريخية التقليدية في شؤون الإسلام، لم تَلْقَ أصداءً حسنة لدى المختصّين، فإن هؤلاء أنفسهم، حتى في عدم اتفاقهم معه، قد أبدوا إعجابهم الشديد بمواهبه ومقدرته العلمية، وأثنوا دائماً على المثابرة والدأب اللذين أبداهما في قيامه بتلك المهمة التاريخية، مُشِيدِين بنشاطه في التنقيب التاريخي، وعكوفه على البحث الدائب؛ ناهيك بالثناء على الروح التي تَحَلّى بها في إعادة صياغة المادة الخام التي كان يعثر عليها.

لختام هذا الحديث نضيف إلى ما تقدم أن (حوليّات الإسلام)، حتى في نموها المحدود في هذه الوقائع بأجزائها العشرة، قد رَدَّت الاعتبار والفضل إلى الدراسات العربية والإسلامية في إيطاليا، بعد أن فَقَدَت قيمتَها الصحيحة في حقل الحوليات التاريخية منذ (الحوليات الإسلامية) العشوائية التي كان قد جمعها (ج . رامبولدي – ميلانو ١٨٢٢– ٢٥) والتي لا يستطيع حتى النقدُ المتساهل أن يُضفي عليها ولو قيمةً ضئيلة من الأصالة.

وفي سنة ١٩٢٦، سنة ظهور الجزء الأخير من الحوليات، كان قد صَحَّ عزم كائيتاني على مغادرة إيطاليا، لأسباب مختلفة. وقد نَفَّذ عزمه ذاك، ولكنْ بعد أن قرّر أن يَعْهَد بمؤلفاته وموادّه الدراسية الأخرى إلى (مؤسسة كائيتاني) التي أُنشئت في الأكاديمية الإيطالية (أكاديمية الفهود)، وكان الغرض من ذلك رغبته في أن يهيئ للباحثين الآخرين الشهادات الناطقة بتكريس عشرين سنة من عمره لدراسة

التاريخ العربي. وربما كان يأمل – أملاً لم يتمّ، مع الأسف – أن يقوم غيره بإكمال عمله.

مع التسلسل التاريخي:

ونمضي نحو الهدف الذي رمينا إليه وأعربنا عنه في ما تقدم، مع أن نستمر في دراستنا السريعة، مُتَوَخّين قبل كل شيء تَتَبُّع الأحداث التاريخية، فنرى من المناسب أن نبدأ بإبراز الأعمال التي نجد فيها جميع قرون التاريخ العربي الثلاثة عشر، أو الأربعة عشر، أو قسماً كبيراً منها موجزة في رؤية إجمالية. ومن هذه نستدّل على المنشورات الثقافية الجديرة بالاعتبار، والتي تقوم الجدّية العلمية، وثقافة المؤلفين الواسعة، ضمانةً كافية لصلاحها وأهليتها.

أولُ محاولة لجمْع تاريخ مثل هذا العدد الكبير من القرون ضمن حدود ضيّقة، قامت بها السيدة لاورا فيتشيا فاليري. ففي الفصل الذي عقدته على (العرب) والمنشور في كتاب (حضارات الشرق) وضعت خطوطاً لرسمٍ سريعٍ وكامل لتاريخ ذلك الشعب، واستطاعت أن تُجَرِّد التاريخ مما لا حاجة إليه في مثل هذه الأبحاث التاريخية. وكان أهمَّ من ذلك كثيراً اهتمامُ مستعربتنا هذه في كتابها (الإسلام، من محمد إلى القرن السادس عشر) بأن لا تستعرض تاريخ العرب فحسب، بل توجز خصائص الإسلام التاريخية، والدينية، والثقافية، وكذلك الأدبية والفنية. إنها لدراسة واسعة للعالَم الإسلامي، دون استثناء لعناصره الفارسية، والبربرية، والتركية. وهذه الدراسة تجد ختامها المنطقيّ في بداية القرن السادس عشر، فتلتقي زمنيّاً بعَثْمَنَة العالم العربي المتوسِّطي. وهذا ما لم تستطع أن تصل إليه (حوليات الإسلام)، كما أوجزنا في ما تَقَدّم.

أما فرانشيسكو غبرييلي، الذي ستتوالى في هذه الدراسة الإجمالية وفي غيرها الإشاراتُ إلى جهوده الجبارة في حقل الدراسات الاستعرابية، والإسلامية، والفارسية، فقد صادفَ بكلّ جدارةٍ نجاحاً كبيراً بكتابه (العرب)، الذي يستحقّ التقدير الكبير

لحسن توزيعه للمواد، ووضوح عَرْضه حتى للأحداث العربية التي لا يتاح الوضوح في عرضها إلا لقلّةٍ من المتفوقين، وكذلك لبعض اللمحات الشخصية التي لا يصل إليها بسهولة غير العالِم المتخصّص. ومزايا هذا الرسم الجانبيّ الكامل للتاريخ، المرسوم في ضوء رؤية دؤوبة ممحّصة نقادة، من أقدم العصور إلى أيامنا هذه، يؤكّدها أن هذا الكتاب سرعان ما تُرْجِمَ إلى الإنكليزية والفرنسية والألمانية. ولا يختلف عن هذا الكتاب، من حيث التقسيم التاريخي، كتابٌ آخر هو (العرب، من العصر الجاهلي إلى اليوم)، لأُومبرتو ريتستانو. فبعد استعراض وافٍ لا بدّ منه للأحداث التاريخية العربية من الوثنية إلى العصر الحديث نجد أحدثَ الظروف والشؤون العربية معروضة عرضاً وافياً، ومنها ما لا يزال إلى اليوم يفرض نفسه على اهتمام العالم الغربيّ – غير الواعي دائماً، مع الأسف–. وأخيراً سنذكر في هذا العرض السريع للملامح الشاملة لأَحداث الشعب العربي التاريخية، إن لفظة (عرب) والفقرات الخاصة بعِلْم الأَعْراق، وبتاريخ اسم (الجزيرة العربية) في (دائرة معارف تركّاني) قد حرَّرَها جورجيو ليفي ديلّا فيدا، وهي تحمل الخصائص المتميزة للمعلومات السريعة الحسنة التبويب، والتي لا تعرف التعميمات السهلة.

الجزيرة العربية:

من السهل أن يُدرِك المرءُ أن الجزيرة العربية، قبل أن يُجَدِّد الإسلامُ مجتمعاتِها القائمة على البناء البدويّ، والخاملة إلى حد ما، والتي تُعْوِزنا معرفتها لندرة المعلومات والوثائق، وتصعب معرفة بعض مظاهرها الفريدة، قد كُتِبَت فيها الأبحاث والرسائل العلمية ذات الطابع التاريخي في أساسها. وهذا ما عُقِدَ عليه الفصل الأول من (تاريخ الدين الإسلامي) لميكيلانجيلو غويدي. وأكثرُ من ذلك الفصلان الأوّلانِ من كتابه الذي نُشِر بعد وفاته بعنوان (تاريخ العرب وثقافتهم حتى وفاة محمد) الذي جاء تمهيداً لا بدّ منه لحديثٍ أشمل حول ثقافة العرب. ولكن هذا الحديث لم يَكْمُل بسبب وفاة المؤلف المبكرة. ومع ذلك لم يَخْلُ الكتاب المذكور من عَرْضٍ كافٍ للبيئة الاجتماعية

التي تكوّنت فيها هذه الثقافة في أقدم الأزمنة. وكان غويدي يعي هذه الحاجة، فرسم للجزيرة في وثنيتها لوحة أمينة بقدر الإمكان، استناداً إلى المادة التاريخية الواسعة التي استطاع أن يَجْمَعَها خلال سنين عديدة، ويُقيِّمها بحسّ تاريخي عجيب، وبروح مجرّدة من كل شكل من أشكال النقد الاعتباطي الذي لا مبرّر له، مع أن الكثير منها خرافي.

وهناك أعمال أخرى لباحِثِين قديرِين اقتصرت تماماً على الجزيرة العربية في جاهليتها. وإن الواجب ليدفعنا إلى أن نذكر في مقدمة هؤلاء الباحثين أغناطيوس غويدي، الذي جَمَع تحت عنوان (الجزيرة العربية قبل الإسلام) أربع محاضرات ألقاها بالفرنسية عام ١٩٠٩ في جامعة القاهرة، حيث دُعي لإلقاء دروس في الأدب الجغرافي والتاريخي واللغوي عند العرب. وإذا لم يكن هنا المجالُ لتذكير المختصّين بمزايا هذا المستشرق العظيم، وفضلِهَ في مختلف حقول الساميّات المتعددة، فإننا نرى من فضول القول أن نؤكّد ما لهذه المحاضرات الأربع من قيمة رفيعة، يستطيع أن يَلْمَسَها حتى الجاحدون، حول مهد الحضارة العربية في شمال شبه الجزيرة وجنوبها. وهي تؤكد ما لأغناطيوس غويدي من مقدرة فريدة على تحويل المادة الجافّة المتعلقة بظروف الثقافة العامة إلى عمل علمي.

غير أن الباحث الذي انقطع في الماضي القريب، وبشكل يكاد يكون مضرب المثل، إلى صرامة البحث العلمي في دراسة الجزيرة العربية قبل الإسلام كان كارلو ألفونسو نَلّلينو، الذي جُمِعَت آثارُه العلميّة في هذا الحقل الخاص، بعد نَشْرِها في مجلات عديدة – ولم يُنْشَرْ بعضها من قبل – في المجلد الثالث من مجموعة أعماله العلمية؛ وقد نُشِرَت هذه المجموعة بعد وفاته في ستة مجلدات بعنوان (مجموعة كتابات منشورة وغير منشورة). والباحثون في علوم العربية والإسلاميات، المختصون بدراسة مهد الإسلام من المستشرقين وغيرهم، يعيد إلى أذهانهم اسمُ نَلّلينو كثيراً من الكتابات الفنية حول العقيدة الإسلامية، ومن الإشارات القاطعة

حول وجود الأدب في الأزمنة القديمة. ومن ذلك بحثه بالفرنسية تحت عنوان (هل كانت لمصر صلات مباشرة بجنوب شبه الجزيرة العربية قبل عصر بطليموس؟)، وأكثر من ذلك أبحاثه الأخرى الخاصة (بالعربية السعيدة) التي انفصلت عن شبه الجزيرة بتركيبها الاجتماعي والدستوري، ومنها (اليمن في العصر الجاهلي)، ويكمله أيضاً (اليمن في العهد الإسلامي)؛ وهما بحثان متميّزان وكبيرا القيمة، كَتَبَهُما حول كلمة (اليمن) لدائرة معارف تريكّاني. وفي مقالات أخرى عديدة مدوّنة في الجزء المشار إليه من (مجموعة كتابات) – ولم نذكرها هنا، لأنها سَبَقَت الأعوام الخمسين التي تتناولها هذه الدراسة – نجد إشاراتٍ متلاحقة إلى (الجاهلية). ونحن نجد للجاهلية تاريخاً كاملاً في (الجزيرة العربية قبل الإسلام).

ولكن هذا الكتاب، بحكم الأهداف التعليمية التي وُضِع من أجلها، يختلف عن سابقاته بعرضه السهل، الذي تَخَلَّص عَمْداً من التقنية الزائدة، ولكنه دون ريب بعيد جداً عن الضعف أو عدم الإتقان؛ فلقد كان هذا المعلّم الشهير أبعدَ ما يكون عن الضعف وعدم الإتقان.

وفي وثنية الجزيرة العربية نجد كتاب (الجزيرة العربية قبل الإسلام: التراث العربي)، وقد وضعه ليفي ديلّا ڤيدا باللغة الإنكليزية. وبعد أن يرسم المؤلف لوحة رائعة لمهد الإسلام، يمضي في الحديث على ذلك التراث العربي الذي عرفه الباحث كما لم يعرفه غير القليلين، لِمَا شَغَلَ به نفسه طويلاً من التقييم الواعي، والدراسة الناضجة، والفحص الناقد للمصادر. هذه الأعمال جاءت نتيجةً للبحث العلمي الجادّ الصارم في تاريخِ بَلَدٍ كانت أرضُه الجنوبية – اليمن الأسطورية– قد أوحت ببعض الأعمال والأبحاث في العصر الحديث. ونقتصر ههنا على ذكر (اليمن في التاريخ والأسطورة) لكارلو أنسالدي، وهو كتاب يُعيدُ تركيب بعض الصور والوقائع التاريخية التي يُعْوِزُها العرض الصحيح أحياناً. وكما هو معروف، يمكن أن نعتبر الشعر العربي في العهد الوثني، بكثير من الثقة، تعبيراً أدبياً عن

العرب في ذلك العهد، يُمَثِّل في الوقت نفسه واحداً من أكثر المصادر مباشرة وأصالة لمعرفة المجتمع البدوي القديم. ولذلك كثيراً ما أشار مستعربنا الأوثق والأكثر معرفة بالشعر العربي القديم، فرانشيسكو غبرييلي، إلى الوثنية العربية، لضرورةِ وضع إطار لأَقْدَمِ فحول البَرْناس العربي ضمن ذلك النطاق التاريخي، والتاريخي الثقافي. وكان أطول من ذلك وأدعى إلى عمق التفكير انشغاله المتمهّل بالتراث التاريخي والأسطوري في ذلك العهد. وأكثرُ ما يكون غَرَضُ ذلك البحاثة تحديداً كان في وضع البداوة العربية في صلة مباشرة مع اللحظة الشعرية، كما فعل في أبحاثه التالية: (المجتمع البدوي والشعر الجاهلي – القبلية والدولة في الشعر العربي القديم – الأدب البدوي الجاهلي)، وكلّها موضوعاتٌ عادَ إلى بحثها من جديد في دراسته للعهد الإسلامي في كتابه الفرنسي (القبليّة العربية والدولة الإسلامية في العصر الأموي)، وفيه أجاد غبرييلي اختيار مقاطع شعرية، وترجَمَها إلى الإيطالية بمهارته المعروفة وأناقة صياغته. وكان ذلك مما سكتت عنه المصادر التاريخية، أو أشارت إليه إشاراتٍ غيرَ واضحة دائماً.

* * *

العهد الإسلامي:

ويجيء الآن الوقت الذي نَعْبُر فيه من شبه الجزيرة العربية الوثنية إلى ابنها الأعظم، نبيّ الإسلام، الذي كانت سيرتُه موضوعاً لأروعِ الأبحاثِ التي قام بها كائيتاني، ثم أصبحت بعد ذلك، في عام ١٩١٧، مادة لمناقشاتٍ وأبحاث علمية واسعة، راحت تتزايد وتنمو مع الأيام، على أثر أطروحةٍ علمية للدكتوراه حَوْلَ أقدم الأحاديث المتعلقة بحياة محمد. وبعد بضع سنوات قامت السيد فرجينيا ڤاكّا دي بوسيس – التي أثارت ذلك النقاش غير عامدة، ولم يَلْبَث اسمُها أن برز بين كبار المستعربين – بنشر كتابها (سفارات محمد إلى الملوك، في رواية ابن إسحق

والواقدي)؛ وفيه درست، على أساس الأخبار التي أوردها المؤرخان المذكوران، علاقات الإسلام في بداياته بالنجاشي، وكسرى الثاني، وهرقل، والمقوقس.

وبين أوائل الباحثين الذين عُنُوا بوجوب فصل الخرافة عن التاريخ، في تلك الغابة الكثيفة من الأخبار التي وصلت إلينا من الروايات التاريخية العربية، نجد كارلو نَلّلينو. فَبَعْدَ أن كَتَب بحثاً رائعاً حول سيرة النبي كَتَبَ كذلك بحثاً حول اسم (محمد) لدائرة معارف تريكّاني، قَسَّمه حسب التقسيمات الكلاسيكية: الحداثة، العهد المكّي، العهد المدني؛ وبعض الاعتبارات القصيرة العامة التي كان البحاثة قد أطال الكتابة فيها في بحث له بعنوان (في الذكرى المئوية الثالثة عشرة لوفاة محمد). ومن المفروض أن ميكيلانجيلو غويدي، في الفترة نفسها، كان معنيّاً بترتيب مجموعته، وفي دراسة المراجع التي استمدّ منها فصل (النبيّ محمد) وتنسيقها. وكان ذلك الفصل هو الثالث والأخير من كتابه المذكور آنفاً (تاريخ العرب وثقافتهم). في هذه الصفحات يبدو هنا وهناك اقتناع غويدي المسبق بأن ثمة تأثيراً أساسياً للروح العربية في الحضارة الإسلامية. وكان الكاتب يودّ أن يثبتها فيما بعد بأدلة يفترض أنها ثابتة وأصيلة، لو قُدِّر له أن يبلغ بكتابه إلى منتهاه.

أما الأبحاث التي ضَمَّنها غبرييلي كتابه (مظاهر من الحضارة العربية والإسلامية) فقد كان الغرض الأساسي منها التعميم، والقليل منها كان بقصد التاريخ – كما يوضح ذلك عنوان الكتاب– كانت ثلاثة من هذه الأبحاث تدور حول نبي الإسلام، فَتُقَدِّمُه أولاً إلى القراء منصرفاً إلى حوافز تجربته الدينية، ثم مُواطناً أولَ في مجتمع المدينة. حتى في هذه الخطوط القصيرة يبدو البحاثةُ رسّاماً ومفكراً بارعاً في رسم الملامح واللمسات التاريخية السريعة، والجديرة بأن تقول شيئاً جديداً حتى للمتخصص، ولكنها بشكل خاص تُثَقِّف الجاهل دون أن تفرض عليه عناء الثقافة المتخصصة جداً. وبعد إعادة صياغة الأبحاث المشار إليها حول شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، وحول محمد، في مقال بالألمانية عنوانه:

Mohammad und der Islam als weltgeschichtliche erscheinungen

ظهر ضمن سلسلة (تاريخ العالم)، كَتَبَ غبرييلي كتاباً بعنوان (محمد والفتوح العربية الكبيرة)، هو، في الواقع، كتابٌ قليل عليه أن يُنْعَتَ بأن قراءته ممتعة. وهذا العمل الجديد يرمي، كغيره، إلى تعريف عامة المثقفين بمظاهر خاصة من حضارةٍ قد لا يعرفونها إلا على وجه التقريب. ونجد فيه ثلاثة فصول متكاملة حول نبي الإسلام، تُقَدِّمُه أولاً في ضوء تقديس أتباعه له، ثم يلي ذلك حالاً تقديمُه في ضوء حكم المسيحية السلبي في دفاعها عن عقيدتها خلال القرون الوسطى، ثم في ضوء التقييم المستنير الجديد، وأخيراً في الرؤية الرومنتيّة (كصاحب شريعة، وملهَمٍ عظيم) و(كموقظ لقوى شعبه الهاجعة). وكان المستعربون والباحثون في الإسلام قد قاموا، منذ النصف الثاني للقرن التاسع عشر، بالعمل على قواعدَ أوثقَ وأثبت في إعطاء حكم تاريخي أكثر توثيقاً ومصادر حول باعث العروبة ورسالته النبوية. وهذه الصحائف التي كَتَبَها غبرييلي والتي جاءت بَعْدَها وَرَدَتْ فيها، ببراعة المعلم القدير، أحداثُ حياةِ محمد في مكّة والمدينة، وبالتالي أوضحت بجلاء خُطى الإسلام الماضية قُدُماً إلى أقصى مدى لانتشاره في الشرق والغرب. وإذا كانت هذه الفصول تلتقي في الأصل التاريخي العامّ مع أعمالٍ علمية مشابهة لها لعلماء آخرين، فإنها تختلف عنها اختلافاً تاماً من حيث المقارنات الجديدة، ومن حيث التقييمات الدقيقة التي غالباً ما تتميز بالأصالة المطلقة.

ويقتضينا واجب الأمانة العلمية أن نختم هذا الحديث بأن نَذْكُر أن في الكتابات المتعلّقة بسيرة محمد، والتي تتضّمنها كُتُب التاريخ العربي العامّ المشار إليها، وكذلك في المؤلفات الرامية إلى التعريف بالإسلام – ونذكر منها أبحاث مارتينو ماريو مورينو، ولاورا فيتشا فالييرى– اقتَصَرَ المؤلفون على البناء المألوف، ولم يبتعدوا عنه إلا ليُدخِلوا فيه أفكاراً واستنتاجات ذات طابع شخصي.

* * *

بعد الانتصارات العسكرية المدويّة الأولى للإسلام، والتي نَجِدُ منها في كتاب فرانشسيكو غبرييلي المذكور صُوَراً ملحميّة من المعارك الآسيوية والإفريقية، اندلعت في المجتمع العربي والإسلامي، الهشّ حينئذ، نارُ الحرب الأهلية بمبايعة عليّ بالخلافة. فلقد اعترض عليها معاوية اعتراضاً شديداً عنيداً، إلى حدّ المناداة بالحرب. وكان أول من درس الموادّ التاريخية التي يتضمّنها كتاب (أنساب الأشراف) للبلاذري، بِقَصْد المضيّ نحو إعادة بناء فكرة صحيحة عن تلك المعارك التي كان سببها الوصول إلى السلطة، هو جورجيو ليفي ديلا ڤيدا، عام ١٩١٥. وكان قد أتيح له أن يصل إلى معرفة ذلك النصّ وتقدير أهميته في أثناء معاونته في (حوليات الإسلام). ونتج عن ذلك أن أصبحت هذه لديه رسالة يؤديها في فترة ما. وبعد قرابة عشرين سنة أخذ ذلك العالِمُ بالساميّات يهتمّ بالعودة إلى دراسة ذلك الكتاب بمعاونة المرحومة أولغا بِينتو – تلميذته– في القسم الذي خَصَّصه البلاذري للخليفة معاوية. ولكنه في الغالب كان يعتبرها مجموعة غير منظّمة أكثر منها أخباراً تاريخية، أو مادة تتعلّق بالأنساب، شعرية أو جامعة. وبعد هذا الذي قدَّمه جورجيو ليڤي ديلا ڤيدا، وليوني كائيتاني، وفرانشيسكو غبرييلي، وميكيلانجيلو غويدي، ظَهَرَ كتاب آخر في دراسة الأحداث التي رافقت هذا المنعطف التاريخي الحاسم في بداية عهده. الكتاب للسيدة لاورا ڤيتشا ڤاليري، وقد عادت فيه إلى فحص هذه القضية الصعبة على أساس مواد جديدة تاريخية، وأخرى تتعلق بالانشقاقات الدينية، مستقاة من مصادر (إباضية) استطاعت بواسطتها القضاء على بعض التناقضات، وأن تسد بعض الفجوات المتعلقة بالأحداث. ودعمت السيدة فاليري ذلك بكتابها (ترجمة خطوات تتعلق بالنزاع بين معاوية وعليّ، وانشقاق الخوارج)، لتجعل منه فهرساً لا بدّ منه لأبحاثها الخاصة التي كتبتها بروح نقاده، وتوثيق جاهد دؤوب. وقد استقت مادة كتابها هذا على الأغلب من (كتاب الجواهر) للبرّادي؛ وهذا المؤلف يمكن اعتباره واحدا من أوثق مؤرخي الشيعة الإباضية في أفريقيا الشمالية. وبهذين الكتابين القيّمين اكتسبت مُستَعْرِبَتُنا كفاءتها

العالية في هذا الحقل، بحيث إن العديد من (الكلمات) التي ورد شرحها في الطبعة الثانية من (دائرة معارف الإسلام) والمتعلقة بالفترة المشار إليها، تحمل توقيعها، وأهمُّها اسم (عليّ بن أبي طالب).

أمّا كتاب البلاذري التاريخي الكبير، الذي يمكن اعتباره أقدم المراجع التاريخية الباقية لدينا حول القرنين الأوّلَين من ظهور الإسلام، فقد شارك فرانشيسكو غبرييلي مشاركة فعالة في الانتشار الواسع الذي لقيه– وكان قد عُهِد إلى غبرييلي بتحقيق جزء من هذا الكتاب، ولكنَّ من المؤسف أنه لم يُنْشَر بعد – ومشاركته هذه هي في كتابه (خلافة هشام) الذي أعاد فيه بناء فترة المُلْك الطويل الأمد للابن الرابع لعبدالملك، على أساس المصدر المذكور وغيره من المواد التاريخية الموثوق بها، وذات الصلة بالموضوع. على أساس من هذه الدراسة الأولى بدأ غبرييلي سلسلةً مرموقة من المشاركات في الدراسات التاريخية للعهد الأموي، لم يلبث أن أغناها فيما بعد – إلى جانب الفصول التي تَضَمَّنَتْها مؤلفاته العامة المتقدّم ذكرها حول تاريخ العرب – بأبحاث موثَّقَة جدّاً حول (الوليد بن يزيد، الخليفة والشاعر – وثورة بني المهلب في العراق، والبلاذري الجديد – والبطل الأموي مسلمة بن عبدالملك). وفي هذه الكتابات – كما في ما سبقها حول الفترة العباسية، ممّا سبقت الإشارة إليه– تُصبح الأعمال التاريخية، والأعمال الضئيلة الأهمية، معالم واضحة بما يضفيه عليها من تفكيره واستطراداته ذات الطابع الاجتماعي، والبِيئي، والثقافي، والتي تُمَثِّل، هنا وفي أي مكان آخر، الجزء الأدعى إلى التقدير من إنتاج غبرييلي العلمي والتعريفي.

وفي إطار العصر الأموي يدخل أيضاً البحث الذي عنوانه (العرب في الهند) للمؤلف نفسه، ومن خلال مصاحبة البلاذري، ولا سيّما في كتابه (فتوح البلدان) المشتمل على القليل من المعلومات التي وصلت إلينا في كتب التراجم والتاريخ العربية حول فتح السند، وضع غبرييلي كتاباً حول محمد بن القاسم الثقفي، الذي ضَمَّ إلى الإمبراطورية الأموية تلك الولاية الجديدة النائية – السّند– "حاملاً معه إلى

الهند ديانة جديدة، وثقافة جديدة". في هذه المرة أيضاً يضيف غبرييلي في الفهرس ترجمة لبعض الصفحات المأخوذة عن (الشاهنامة) – وهي رواية فارسية، من القرنين السابع والثامن، منظومة شعراً عن أصل عربي مفقود من تاريخ الفتح–. ولهذه الرواية الشعرية، القليلة الأهمية التاريخية بالنسبة إلى الأحداث المشار إليها، نجد تقييماً مفيداً في الجزء الأول من البحث. ورغم خشيتنا من التكرار، لا بدّ لنا هنا أيضاً من أن نثبت بالتحديد – مثلما قَدَّمنا في العصر الجاهلي– أن هناك مشاركات أخرى لمعرفة البيئات التاريخية والاجتماعية في العصر الأموي، نجدها في جميع كتابات مستعربنا هذا؛ كَتَبَها حول الصوفيين، والشعراء، والناقدين في ذلك العصر، من الحسن البصريّ إلى جميل بن مَعْمَر، إلى ابن المقفع.

وأما عبدالعزيز بن مروان، الذي وَلِيَ على مصر عشرين سنة (٦٨٥– ٧٠٤) للأمويين في دمشق، حيث كان الخليفة أخوه عبدالملك بن مروان، فقد كتب حوله أومبرتو ريتستانو بحثاً، جاء استكمالاً لدراستين كان قد كتبهما في شبابه حول الشاعر (أبو محجن نُصَيب بن رباح)، الشاعر والمولى المخلص لذلك الوالي (عبدالعزيز بن مروان)، وكان يَكْثُر في شعره المدح والشكوى، وقد تضمَّنَت كتب الأدب مقاطع من قصائده.

وعلى غرار لاورا ڤيتشا ڤاليري، وبارشادها، دَرَسَ مستعربون آخرون من المعهد الشرقي في نابلوي مظاهر ووجوهاً خاصة من الشيعة الإباضية، وما كان لها مع الشيعة الخارجية، التي تحدَّرَت منها الإباضية، من خلافات لا يستهان بها في التاريخ العربي. أما العلاقات بين عبدالملك بن مروان وزعماء تلك الفئة المنشقّة فنجدها موضَّحَة في مقالٍ لروبرتو رُوبيناتشي عنوانه (الخليفة عبدالملك بن مروان والإباضيون). ويشتمل المقال على ترجمةٍ لرسالة من عبدالله بن إباض إلى الملك الأموي، نقلاً عن المراسلات التي جرت بين الرجلين، والتي لم يَحْفَظ لنا التاريخ سوى بعضها.

* * *

العصر العباسي:

وكما هو معروف، لم يجد العصر العباسي بَعْدُ بين المستعربين مؤرخاً ذا استعداد لأجل العكوف على إعادة بناء القرون الخمسة من تاريخه. ولكنّ أهمّ أثر دُرِسَ فيه من ذلك العهد الطويل لا يزال إلى اليوم كتاب (الوزارات العباسية، من سنة ٧٤٩ إلى ٩٣٦) الذي وضعه الفرنسي د. سورديل. أما من المستعربين الإيطاليين فقد وضع س. موسكاتي، العالم بالساميّات، سلسلة أبحاث حول تلك الخلافة وتطوراتها. وهذا الباحث اهتم اهتماماً جادّاً بنشاط علميّ يباعِدُ بينه وبين الاستعراب، رغم أنه عمل في حقوله فترة من الزمن بموهبة وغَيْرَة. وقد سَلَّط ضوءاً جديداً على بعض اللحظات الأساسية من الأسرة العباسية التي يَصْعُب بناؤها في الغالب، بسبب الفجوات والأخطاء في الأخبار التي يُمكن العثور عليها في المصادر. وأما نهاية الأمويين الفاجعة فقد سَجَّل موسكاتي وقائعها في كتابه (مذبحة الأمويين في التاريخ وفي المقتطفات الشعرية). وأما بداية العباسيين الذين وصلوا إلى السلطة بمساعدةٍ ثمينة من (عبدالجبار بن عبدالرحمن الأزدي) فقد خَصَّص لها ثلاثة أبحاث جَمَعَها تحت العنوانين التاليين: (دراسات حول أبي مسلم) و(ثورة عبدالجبار على الخليفة المنصور). وكان المنصور قد غاظه كثيراً ما كان لمبعوثَيْه من نفوذ، فقرَّر وضع حدّ عنيف لحياتهما. ولكن الأحداث اللاحقة لتلك الأسرة العباسية كانت أيضاً موضع اهتمام ذلك الباحث، فقد أعاد بناءها على أساس دراسة واعية للمصادر، ونَشَرَها، بمظاهرها السياسية والعسكرية، في ثلاثة أبحاث: هي: (دراسات تاريخية حول خلافة المهدي – ودراسات تاريخية جديدة حول خلافة المهدي – وخلافة الهادي)، وهي كلّها مراجع لا غنى عنها للباحث الذي سيحاول كتابة تاريخ الخلافة العباسية. فإذا ما وُجِد هذا الباحث، فسيجد موادّ نفيسة تساعده على إلقاء الضوء على العلوية والخارجية خلال الفترة الأولى من العصر العباسي، في بحث عنوانه (شطحات فكرية حول ثورتين عَلَويَّتين)، للسيدة لاورا ڤيتشا ڤاليبري، و(المراسلات بين المنصور ومحمد النفس الزكية) للكاتب ر . تراڤيني، وفي (تبادل الرسائل بين هارون الرشيد وحمزة الخارجي، حسب كتاب

"تاريخي سيستان" للمستشرق المتخصص بالفارسية ج . سكارتشِيّا. وهذه دراسات استُخدِمَت فيها مصادر لم يَسْبُق فَحصُها.

بعد بضع عشرات من السنين من بداية الخلافة العباسية الدموية كان يمكن اعتبار هذه الخلافة قد توطَّدت أركانها. وكان من نصيب هارون الرشيد فضلُ المضيّ على آثار الخلفاء الأربعة الأوّلين حتى تبلغ الخلافة أقصى زهوتها. وقد تضافرت الأساطير التي نُسِجَت حول شخصية الرشيد الملكية، وحول إمبراطوريته الزاهرة، وبلاطه ذي الفخامة المذهلة، مثلما تضافرت كذلك الإنجازات غير العادية التي تمَّت في عهده، على تمجيده وتعظيمه.

ونحن فعلاً نجد في كتاب (هارون الرشيد، تاريخ وأسطورة)، إلى جانب الأحداث الرئيسية لذلك الخليفة، التمجيد الذي أُسْبِغ على شخصيته بعد وفاته. وأمّا وَلداه فقد اهتمّ الباحث نفسه بإيضاح النزاع الدمويّ الذي ثار بينهما لأجل ارتقاء العرش، وذلك في ثلاثة بحوث كان قد كتبها في شبابه، وهي: (وثائق تتعلّق بخلافة الأمين، في الطبري – وخلافة هارون الرشيد، والحرب بين الأمين والمأمون – والمأمون والعلويون). هذه البحوث التاريخية الثلاثة تتكامل مع العديد من أبحاث غبرييلي الأخرى، الأدبية والدينية، التي خَصَّصها للعصر العباسي. وهذا حقل كان قد بدأه في بواكير دراساته العلمية ببحث عنوانه (حياة المتنبي). ومن المؤسف أن دراسات الباحثين الإيطاليين تتوقّف عند هذه الفترة من العصر العباسي؛ وهي، في الواقع، أزهى فتراته وأقواها. وأما الفترة التالية فليس في وسعنا أن نذكر حولها أكثر من بحث واحد حول (الفتح بن خاقان، الرجل المفضل لدى المتوكّل)، وفيه توضح السيدة أولغا بينتو صورة ذلك الرجل – الذي يلقّبه بعض المؤرخين خطأً بلقب الوزير – في شخصيته المزدوجة: شاعراً، ورجل سياسة. وكان الفتح رفيق الطفولة للمتوكّل، ثم أصبح مستشاره، وأحياناً مرشده وموجّهه. ونذكر ههنا كتاباً آخر للسيدة أولغا بينتو عنوانه (المكتبات العربية في العصر العباسي).

غير أن العصر العباسي، كما يعلم المؤرخون والمستعربون، يعيد إلى الذهن العلاقات بين أوروبا المسيحية والعالم الإسلامي: فالصلات بين هارون الرشيد وشارلمان نجد حولها إشارات كافية إلى حدّ ما لدى بعض المهتمين بدراسة العصور الوسطى، الذين درسوا – لدوافع مختلفة، وبنتائج مختلفة كذلك– النشاطات الدبلوماسية للملك الفرنجي. ومن بين آخر ما نعرف من تلك البحوث في ذلك الموضوع الشائق، دراسة كتبها ج . موسكا، وعنوانها (شارلمان وهارون الرشيد)، وفيها ألقى ضوءاً على تلك الفترة التاريخية، معتمداً على المصادر اللاتينية التي استمدّ منها اعتبارات أصيلة حول الأسباب الدينية والسياسية التي دعت الغرب إلى الاتصال بالعالم الإسلامي. وبعد نحو قرن من الزمن من تلك العلاقات قامت روابط أخرى بين حكومة بغداد وإحدى الدوقيّات الإيطالية، أو بالأحرى بين المكتفي وبيرتا التوسكانيّة – كما يَسْهُل أن نعرف من رسالتين متبادلتين بالعربية: رسالة كتبتها تلك المرأة الطموح بيرتا، وردّ الخليفة عليها؛ وقد نشرهما لأول مرة المؤرخ محمد حميد الله – وأوّل من أثارت تلك الاتصالات الرسائلية اهتمامه الشديد كان ليڤي ديلا ڤيدا – ومعه في وقت واحد تقريباً س . ج . مور كذلك–. لقد قام ديلا ڤيدا بترجمة الرسالتين إلى الإيطالية، وقدَّم لهما بأخبار وافية حول المصادر العربية التي استعان بها، وعقب عليهما بأفكار شخصية ثاقبة، حول الأسباب الدبلوماسية والسياسية التي ربما كانت الأساس لتلك الاتصالات.

* * *

المغرب وأوروبا:

بدأ فتح المغرب، كما هو معلوم، منذ عهد معاوية، ولكنه ثبت وتوطد في عهد بني مروان، وازداد ثباتاً ومتانة في زمن العباسيين. وتلت ذلك سيادة الإسلام التدريجية في وسط البحر المتوسط وشماله، تمهيداً لغزو الأندلس، ثم، بعد قرن أو أكثر قليلاً، لغزو صقلية أيضاً. ولم يتم إدخال القوات العربية – البربرية الفتية إلى المغرب المسيحي القوطي في إسبانيا،

والبيزنطي في صقلية، دون اصطدامات في الواقع، كانت مع ذلك تمهيداً للقاءات غنيّة غير قليلة، نجد وقائعها التاريخية والاجتماعية والثقافية في كتابين أصبحا الآن من الأعمال الكلاسيكية؛ وهما: (تاريخ مسلمي إسبانيا) لدوزي – وقد أعاد ليفي بروفنسال صياغته بشكل أساسي – وكذلك (تاريخ المسلمين في صِقِلّيَة) للمستعرب الإيطالي ميكيلي أمارى. هذه الأحداث وَقَعَ معظمُها في القرون الوسطى الأوروبية، ولذلك أثارت اهتمام المؤرخين الغربيين، تحفزهم إليها تقييمات أثارتها أطروحة شهيرة وجديرة بالمناقشة، كتبها هـ. بيرين، بعنوان (محمد وشارلمان). وفي هذه الأحداث كلّها كانت مشاركة الباحثين الإيطاليين بارزة. ونكتفي بأن نشير منها إلى البحوث التي كتبها المستعربون، لاعتقادنا بعدم المقدرة على إعطاء دراسة وافية في هذا الحقل.

وكما فعل العرب من قبل في الأراضي الشرقية في آسيا، كذلك فعلوا في البحر المتوسط؛ فقد وجدوا أنفسهم وجهاً لوجه مع البيزنطيين. وفي هذا الموضوع كان (العرب والبيزنطيون في البحر المتوسط الأوسط) عنوان البحث القيّم الذي يوضح فيه فرانشيسكو غبرييلي أهم الوقائع. وهنالك أخبار تاريخية مهمّة حول غارات المسلمين على صِقِلّيَة وكالابريا، وحول الاستيلاء على كاستروجوفانّي عام ٨٥٩، وعلى العموم، حول العلاقات العربية البيزنطية في تلك الأراضي في القرن التاسع. هذه الأخبار نجدها في (حياة القديس إيليا الشاب)؛ وهو كتاب يوناني، تَرْجَمَه وعَلّق عليه أحد المهتمين بالدراسات البيزنطية، واسمه ج . روسي طايبّي. وأما الهجوم على سيراكوزا والاستيلاء عليها، عام ٨٧٨، فهنالك وثيقة نفيسة حولهما هي رسالة الراهب تيودوسيو، التي نشرها لنا عالِمٌ بالدراسات اليونانية اسمه ب . لافانييني.

وأما الأبحاث المتعلقة بإسبانيا المسلمة فليست كثيرة، بل هي في الواقع قليلة جداً. وهذا أيضاً حقل دراسيّ طَرَقَه فرانشيسكو غبرييلي في كتابه (رسالة ابن عبدون النقدية حول حكومة إشبيليا)؛ وهو يحتوي على ترجمة، مع حواشٍ وملاحظات، لنصٍّ كبيرِ الأهمية حول الحياة المدنية والاقتصادية والاجتماعية في إشبيلية في أوائل القرن الثاني عشر. ثم تَلي ذلك حالاً كتابات أخرى له، بعضُها محاضرات ذات مستوى إخباري رفيع، من مثل (الازدهار السياسي والاجتماعي في إسبانيا المسلمة – والزراعة العربية في إسبانيا وصِقلّيَة – وعرب صِقِلّيَة وعرب إسبانيا)، وكذلك الفصول التي سبق ذكرها بعنوان (مظاهر الحضارة العربية الإسلامية) التي نجد فيها تفاصيل لأكثر المظاهر التاريخية والفنية والثقافية الإسلامية إيجابية في إسبانيا وصقلية. وإلى تاريخٍ أكثر حداثةً يرجع بحثٌ للباحث نفسه بعنوان (العرب في إسبانيا وإيطاليا)، اهتمّ فيه بشكل خاص بدراسة التنظيمات العسكرية في العهد الذي كانت فيه البلاد الأندلسية والصقلية جزءاً من العالم الإسلامي. وهنا أيضاً، كما في المؤلفات والأبحاث السابقة، يتحرّك المؤلف من فحصٍ زمني للأوضاع في شبه الجزيرة الايبيرية والجزيرة الإيطالية. والأحداث التي أدّت إلى ضعف الخلافة الأموية في إسبانيا ثم انهيارها في القرن الحادي عشر، وأدّت كذلك إلى إنجازات مجاهد العامري – وهو واحد من أبرع رؤساء الطوائف– نجدها كذلك مصوَّرة في إحدى الدراسات الموثّقة أحسن توثيق، كَتَبَتْها بالعربية المستعربة السيدة كليليا سازنيللي – وسنعود إلى ذكر هذه السيدة فيما بعد–.

ويظهر أن كثيراً من المستعربين والمؤرخين الإيطاليين الذين تخصصوا في دراسة مواقف معينة من العصور الإسلامية الوسطى في صقلية، وفي إيطاليا الوسطى الجنوبية، شاقهم اسم ميكيلي أمارى وبحثه المتفوق في (تاريخ مسلمي صقلية). وهو من أهم كتب التاريخ الإيطالية في القرن التاسع عشر، وقد استحق بجدارة أن يعاد طبعه مرة ثانية، بعناية فائقة من كارلو ألفونسو نَلّلينو، مع إضافة بعض النصوص المختارة إليه. وأما فرانشيسكو غبرييلي فإنه، بعد البحث الأول

الذي كان قد كَتَبَه سنة ١٩٣٨ بعنوان (التراث الروماني في إيطاليا الجنوبية والغزوات الإسلامية)، عاد في فترات متقطعة إلى (صِقِلّيَة العربية) – وهذا هو فعلاً عنوان أحد مقالاته الصحفية القصيرة، من بين كتاباته المتقدّم ذكرها، حول إسبانيا المسلمة، وكلّها ممتع، يتميّز بعمق التفكير ووضوح العرض–. وأما في ما يتعلّق باحتلال الأغالبة لصقلية، وما نتج عنه من انعكاسات على الصعيد الثقافي والفني، فنجد دراسة ممتعة في كتاب (المسلمون في صقلية) الذي ألَّفه باللغة العربية المرحوم مارتينو ماريو مورينو، وجمع فيه محاضراتٍ كان قد ألقاها في الجامعة اللبنانية في بيروت.

ونجد أومبرتو ريتستانو معنيّاً بالحقل نفسه منذ نحو عقد ونصف العقد، تَحْفِزُه إلى ذلك على الأخص رغبةٌ في الحفاظ، في صِقِلّية خاصةً، على نوع من الدراسة كان قد أعطاه الحياةَ والقيمةَ العلميةَ المؤرخُ الصقلّيّ ميكيلي أمارى، الذي سبق ذِكْره مراراً، أكثرَ مما تَحْفِزُه الثقة في مقدرته على المساهمة في تحسين آثار أمارى الرائعة. ذلك لأن النصوص غير القليلة التي خرجت إلى النور بعد ذلك لم تُزَوِّد المستعربين بموادَّ تَسْمَحُ بإجراء تعديلات أساسية على تلك التي كان قد جمعها أماري في (المكتبة العربية الصقلية). ومن دراسة النصوص التي لم يَطّلع عليها أماري، ومعظَمُها مختارات، والتي لم تختلف عن تلك التي نُشرت في (الذكرى المئوية لوفاة ميكيلي أماري)، استطاع ريتستانو أن يلفت إلى نفسه الانتباه ببحث له عنوانه (مصادر عربية جديدة لتاريخ المسلمين في صقلية). وأهمّ ما استوقفه منها تلك المصادر الفاطمية، وعلى الأخص (سيرة جوذر) لأبي علي منصور العَزِيزي؛ وهي وثيقة نفيسة، تلقي الضوء خاصة على وجوه غير معروفة من نشاطات بعض أمراء الكلبيين في صقلية، وصلات جزيرتنا مع الضفة الإفريقية المقابلة، في نحو منتصف القرن العاشر. وقد خَتَمَ بحثَه بترجمةٍ بضع صفحات من (السيرة) المذكورة. ومن بعد ذلك ظهرت لها ترجمة فرنسية كاملة، قام بها م . كانار. وبعد أن كشف ريتستانو هذه المصادر الجديدة، تلا ذلك بنشر بعض

تلك النصوص، وفيها أخبار تاريخية لا وجود لها في أي مصدر آخر. ومن هذه نذكر ههنا (كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار) للحميري. وهو مؤلف جغرافي لم ينشر إلا بعضه حتى الآن، والذي نشره ريتستانو منه حتى الآن هو القسم المتعلق بالبَرّ الإيطالي وصقلية[1]. غير أن هذه المصادر المكتشفة – كما قدمنا سابقاً– كانت أهميتها في أنها قدمت لنا مقاطع من الشعر، وبعض السير وأعمال المؤلفين، أكثر مما قدمت لنا أخباراً ذات صلة "بتاريخ" المسلمين في صقلية. إلا أن تلك المعلومات تُكْمِل معرفتنا بالثقافة العربية التي نَمَت وتطوّرت في الجزيرة منذ عهد الفتح، واستمرَارها في العهد النورمندي، ثم في العهد السوابي Svevi. وقد استفاد الباحث نفسه من هذه المواد في كتابه (الثقافة العربية في صقلية)، الذي صدر منه الجزء الأول فقط، ومن المؤسف أنه لم يكمل بعد بالجزأين الثاني والثالث اللذين كان المؤلف يعتزم إصدارهما. ونحن نذكر هذا الكتاب ههنا لأن في الفصلين الخامس والسادس منه دراسة سريعة حول الأزمة الفاطمية في المغرب وصقلية في القرن العاشر.

في أعمال فرانشيسكو غبرييلي، ومارتينو ماريو مورينو، وأومبرتو ريتستانو المتقدم ذكرها – وكلّها تستلهم آثار ميكيلي أماري– يعيش المرء من جديد مع لحظات بارزة من أحداث امتدت – من الوجهة التاريخية الصرف – مدة أقل من قرنين ونصف القرن، غير أن آثارها، في جوانب أخرى، استمرّت في صقلّية إلى عهد فريدريك الثاني، وفي إيطاليا الجنوبية كانت نهايتها الحاسمة على يدي الملك السوابي كارلو الثاني دانجو، الذي قضى على العناصر العربية في لوشيمرا، واضطَرّ العناصر الإسلامية الباقية في صقلّية إلى الهجرة. والوثيقة العربية الوحيدة التي وصلت إلينا حول هذه الحادثة هي (تسجيل العرب – لريكّاردو دي لوشيرا) وقد نشرها ليفي ديلا ڤيدا بعد أن قام بترجمتها وتعليق الملاحظات عليها.

---

(١) الكتاب كاملاً حققه الدكتور إحسان عباس، وتولت نشره مكتبة لبنان، في بيروت، سنة ١٩٧٥ (ع . ن .).

وأما صقلية النورمندية والسوابية في صلاتها بالعالم الإسلامي في أفريقيا وآسيا، وكذلك أنماط حياتها المتعدّدة وفكرها العربي الذي استمر في ذلك العهد، فنجد صورة لها في سلسلة من الأبحاث التاريخية والثقافية التي كتبها فرانشيسكو غبرييلي، وأومبرتو ريتستانو: الأول منها نذكر له (سفارات بيبرس ومانفريدي)، ويليه حالاً لاومبرتو ريتستانو مقالان باللغة العربية بعنوان (النورمنديون والعرب في صقلّية)، وهما يدوران على علاقات النورمنديين والزِيريين في أفريقية، وعلاقات غوليلم الثاني وصلاح الدين. وقد عهدت وزارة التعليم الإيطالية إلى هذين الباحثين بالإشراف على نشر أعمال ميكيلي أماري وأوراقه. وكانت هذه المهمة تقتضيهما واجب العناية بالطبعة الثانية من (الدراسات القديمة) و(المكتبة العربية الصقلّية) نصوصاً وترجمات. وأما النورمنديون الذين وطّأ لهم الأميرال جورجيو الأنطاكي السيطرة على أفريقية مدة عشر سنوات، وكذلك الموحِّدون، وهم القوة السياسية والدينية الجديدة التي قضت على التحصينات المسيحية في أفريقيا، فنَجِدُ حولهم أخبار موثَّقة في (تاريخ طرابلس وليبيا) لإيتَوري روسّي؛ وسنعود إلى ذكره في ما بعد. وحول الأسرة الملكية المذكورة، ولا سيما أخبارها التي وصلت إلينا من المؤرخ الدمشقي ابن القلانسي، كتب فرانشيسكو غبرييلي (أصول حركة الموحدين في مصدر تاريخي شرقي). وتعود بنا الذكريات إلى الأحداث التاريخية في صقلية في عهد الكلبيّين، والعهد النورمندي خاصة في كتاب (باليرمو حسب الجغرافيين والرحالين العرب في القرون الوسطى) للسيدة أدالجيزا دي سيمونه، وكان هذا البحث رسالة قَدَّمتْها لنَيْل شهادة الدكتوراه إلى كلية الآداب في جامعة باليرمو، حيث يقترن تعليم اللغة العربية في وقت واحد بالدراسات العربية الصقلّية.

وبعد وقفتنا القصيرة هذه عند صقلّية، نلتفت الآن إلى شبه جزيرتنا، فنتذكر أن الغزوات العربية المتعددة للبَرّ الإيطالي قد تحدَّث حولها أومبرتو ريتستانو في بحثه (العرب في إيطاليا). وقد خَصَّص القسم الأول منه لرسم صورة سريعة شاملة لفتح صقلّية. وكذلك فرانشيسكو غبرييلي في أكثر من بحث واحد، ولا سيما في مثل دارستيه (العرب في كالابريا) و(مدينة باري العربية)؛ وكذلك في بحثين آخرين

أكثر جدية وأوسع إحاطة من حيث الزمن والرقعة، وهما: (سالنتو والشرق العربي) و(العرب في أوروبا: إسبانيا وفرنسا وإيطاليا)؛ وهذا الأخير فصل من كتاب للمؤلف عنوانه (محمد والفتوح العربية الكبيرة).

وحول وجود العرب المشار إليه آنفاً في الأراضي الإيطالية الوسطى والجنوبية، وأعمالهم الحربية المتواصلة، إلى حدّ ما، وما كان يتبعها من فرضهم الجزية، أضيفت إلى جهود المستعربين جهود أخرى قيّمة، في الغالب، من بعض المعنيين بدراسة العصور الوسطى. وينبغي أن نحدد أن جهود هؤلاء قد عُنِيت بإعادة بناء صورة الأحداث المشار إليها، وما رافقها من ألاعيب اللومبارديين والبيزنطيين السياسية التي عاصرتها. وكانت هذه الأعمال أقرب إلى الصحّة في ما يتعلّق بالفئة الأولى، لأن المصادر اللاتينية، رغم ما فيها من نقص وعدم دقة من حيث صحة الوقائع، كانت أقل توزُّعاً وتشتُّتاً من المصادر العربية؛ ففي هذه المصادر لا نجد في الغالب أثراً لأعمال العرب في البَرّ الإيطالي. وبالرجوع إلى المصادر اللاتينية – وينـدر أن نجد في المصادر العربية ما يطابقها أو يكملها – استطاع ج . موسكا، العالِم بتاريخ العصور الوسطى، أن يعيد بناء تاريخ الأعوام الخمسين التي كانت فيها مدينة باري عاصمة لدولة إسلامية مستقلة، وإن يكن قد أعطانا تقييمات غير تلك التي أَلِفْناها. وقد استطاع أن يصوِّر فيما بعد غروب تلك الدولة النهائي في بحث لاحق. ومن الواضح أن وجود العرب في صقلّية وفي إيطاليا، وعلى الأخص في سالنتو، قد أشار إليه مؤرخون من أمثال ل . سلفاتوريللي، و م . سكيبا، و ج . بوكيتينو، و س . ج . مور، و إي . بونتييري، و ن . تشيلينتي، و ج . بيتروني، وغيرهم ممّن نجد ذكراً لأعمالهم لدى موسكا، مصحوباً برأي مدروس حول قيمتها في ما يتعلّق بمدينة باري.

إن الغزوات العربية لشواطئ البحر التيريني الإيطالية تُدْخِل في تاريخ العصور الوسطى كبرى الجزر في ذلك البحر، وهي جزيرة سردينيا التي كان المسلمون يغزونها إمّا من إفريقية، وإمّا من جُزُر الباليار. وكانت جنوا وبيزا بشكل خاص منهمكتين دائماً في صدّ هذه الغزوات. ولقد قامت منذ نحو قرن من الزمان

محاولةٌ لإعادة بناء وقائع هذه الغزوات، بشكل خيالي، في الواقع. والذي قام بذلك هو ب . مارتيني، الذي "أعمَتْه الغيرة الوطنية – كما يقول أماري– فلم يفطن إلى ما يحوم من شكوك حول أصالة الوثائق التي استند إليها في بحثه". وبعد أكثر من مئة سنة من ظهور ذلك البحث الذي لا قيمة له قامت السيدة كليليا سارنيللي بإعطاء صورة وافية لتلك الفترة التي كانت فيها سردينيا تحت تهديد مباشر من أسطول مجاهد العامري الجبّار. وقد فعلت ذلك في فصلٍ رائع التبويب من الدراسة المذكورة آنفاً، والتي ظلّت، مع الأسف، بعيدة عن متناول علماء العصور الوسطى. وقد قَدَّمت هذه الدراسة إلى كلية الآداب في جامعة القاهرة لنيل شهادة الماجستير، ثم قامت بنشرها بالعربية، كما ذكرنا آنفاً. وفي موضوع سردينيا عينه والأعمال التي قام بها المسلمون فيها ظهر أيضاً بحث للسيدة لاورا ڤيتشا ڤاليري، أستاذة كليليا سارنيللي، كأنما كان الدافع إليه دعم تلميذتها في مجال بحثها عينه. ويتجدد الاهتمام بسردينيا (العربية) في بحث بالفرنسية عنوانه (آثار عربية في سردينيا)، يرى فيه المؤلف جوفانّي أومان أنه لن يمكن إلقاء ضوء جديد حول تلك الغارات العربية إلا بعد دراسة آثارية كاملة للجزيرة، تكون نتيجة حَفْريّات منظمة في مناطق معينة. أما المواد القليلة التي يضمّها متحف كالياري فليست كافية لأي إثبات.

* * *

الحروب الصليبية:

وعهد الحروب الصليبية الذي اصطدمت فيه المسيحية بالإسلام في بلدان الشرق الأدنى الإفريقية والآسيوية، حيث كانت جذور الإسلام متأصلة أكثر من سواها؛ لقد تعدّدت بحوث علماء العصور الوسطى حولها، ولكننا نكتفي بأن نذكر من أحدثها: (تاريخ الحروب الصليبية) للمؤلف ف . كونياسّو. وأما المستعرب الأول والأخير حتى الآن الذي التفت إلى المصادر العربية، لكي يرى تلك الحروب بعين الخصم حينذاك ونفسيته، فهو أيضاً فرانشيسكو غبرييلي، فقد اكتشف مجموعة من المختارات البارعة

لأشهر مُدَوِّني الأحداث العرب، ممن نَقَلوا إلينا أخباراً وانطباعات، أغلبُها ذو أهميّة تاريخية كبرى؛ وقام بترجمتها إلى اللغة الإيطالية وتحقيقها. ومن هذه المجموعة المكتَشَفَة وُلِدَ كتاب (مؤرخو الحروب الصليبية العرب)، الذي يستحق عليه غبرييلي أعظم الثناء لدقّته اللغوية، وفخامة عبارته النثرية. وبهذا الكتاب فَعَل المؤلف ما كان قد فعله قبل عدة أعوام حينما نَشَر كتابه (فرسان القديس يوحنا لدى مؤرخي الحروب الصليبية العرب)، إذ أتاح للزملاء من غير المستعربين فرصة الوصول إلى أكثر المصادر أصالةً في (الكتابة التاريخية العربية للحروب الصليبية) – وكان هذا عينه موضوع مقال لاحِقٍ له– وإن لم يكن السرد متتابعاً في الدراسة، فلقد كان غريباً في الأغلب على المؤرخين ومدوني الحوادث المسلمين. وفي رقعة الشرق الأدنى عينها، حيث كان يتأجّج العداءُ بين المسيحيين والمسلمين، يَدْخُل بحثُ (العالم الإسلامي في زمن فريدريك الثاني)، وهو بحث كتبه ليفي ديلا ڤيدا، مركّزاً فيه بشكل خاص على لمحة سريعة من سلسلة الاتصالات والعلاقات بين المسيحيين والمسلمين، الذين عاشوا أفضل أوقاتهم فعلاً مع ذلك الإمبراطور السوابي.

* * *

عهد الركود:

والعهد الذي يأتي مباشرة بعد سقوط خلافة بغداد عام ١٢٥٨، يسجِّل بداية ركود بطيء، ولكنه مستمر، في العالم العربي. ويزداد الركود – أو الانحطاط– تأكداً منذ بداية القرن السادس عشر، بسيطرة العثمانيين على البحر المتوسط الشرقي والأوسط. منذ ذلك النصف من القرن الثالث عشر كان المماليك أهمّ صُنّاع التاريخ الإسلامي واستمرار العروبة مدَّةَ قرنين ونصف القرن. وظلّت مصر مَرْكَز الإسلام والعروبة، مثلما كانت في العهد الفاطميّ والعهد الأيوبيّ الذي جاء بعده. والجهد الإيطالي الوحيد لمعرفة البروتوكول الجافّ والمعقد الذي كان سائداً في إدارة الحكم المملوكي هو بحثٌ بعنوان (مرسوم تعيين إلى نيابة طرابلس، في سوريا، من السلطان المملوكي خُشْقَدَم، ١٤٦١– ١٤٦٧)، وفيه نَشَرَتْ المستعربةُ

الشابة ريتا روزي دي ميليو الوثيقة العربية، مشفوعة بتعليق تاريخي توضيحي. وأكثرَ من ذلك كانت الأبحاثُ المتعلقة بعلاقات سلاطين المماليك مع بعض المدن البحرية الإيطالية، ولا سيما البندقية. وكانت هذه العلاقات، قبل أن تقوم في شرقيّ البحر المتوسط أكبر دولة معادية لهم، هي الدولة التركية، قد نَمَّت علاقاتِ تبادلٍ تجاري واسع مع من سبقهم في السيادة على ذلك البحر، وأما العلاقات مع البندقية – وقد عَرَض لها غبرييلي بنظرة شمولية في مقال له بعنوان (البندقية والمماليك) – فإن الكشف الذي قامت به ماريا نَلّلينو على (مذكرات مارين سانودو) سيكون عوناً ثميناً لمعرفتها. وأهمية هذه المذكرات هي في كونها وثائق تعكس العلاقات وغيرَها ممّا سَبَقها. وقد كشفت ذلك ماريا نَلّلينو في بحثها (مصر منذ وفاة قايت باي إلى مجيء قانصوه الغوري، ١٤٩٦– ١٥٠٥– في مذكرات مارين سانودو). وكانت للدوقيّات مصالح مع تونس كذلك منذ القرن الثالث عشر، حينما بدأ في إفريقية حكم السلالة البربرية الحفصية. وفي هذه العلاقات يتحدث أ . ساتشردوتي حديثاً واسعاً في بحث له عنوانه (البندقية ومملكة الحفصيين في تونس: معاهدات وعلاقات دبلوماسية – ١٢٣١– ١٥٣٤). وسنعود فيما بعد إلى ذكر اسم هذا الباحث من جديد.

إن الإشارة إلى العثمانيين باعتبارهم قوة جديدة في البحر المتوسط تقودنا إلى ذكر كتاب (فخر الدين الثاني، أمير لبنان، والبلاط التوسكاني، ١٦٠٥– ١٦٣٥)، وهو جزآن نفيسان قَدَّم فيهما ب. باولو صورة موثّقة أوسع توثيق لجميع الأحداث التاريخية والدبلوماسية التي كان بطَلَها ذلك الأميرُ الدرزي، وكان مسرحها لبنان تاره، وتارة أخرى بلاط الغراندوق كوزيمو الثاني التوسكاني، الذي كان يبدو أن حكّام البندقية والأتراك معاً يكرهونه: فقد كان البندقيون مشغولين بمنازعة التوسكانيين على السيادة في الشرق، مثلما كان يثير الأتراك أن يجد ذلك الأميرُ المغامر في صِلاته ببلاط آل ميديتشي ما يدعم نفوذه وسلطانه. وأما مصر العثمانية فيعيدنا إليها مقال بعنوان (تاريخ علي بك المصري، ١٧٦٣– ١٧٧٣–

في مخطوط للمؤلف ج . م . ديجون) يوضح فيه إيتّوري روسّي، استناداً إلى مصدر نفيس غير منشور، حياةَ ذلك الرجل المغامر ومنجزاته الثوريّة، وظهوره على المسرح السياسي المصري مدى عشر سنوات، محاولاً فصل مصر عن سلطان العثمانيين، ومستفيداً في مطامحه تلك من الحرب التي نشبت بين روسيا وتركيا.

* * *

في البحر المتوسط:

جاء ظهور العثمانيين في البحر المتوسط، وما تلاه من تأخر العرب اللغوي والثقافي، في وقت واحد مع تأليف الحكومات البربرية في المغرب. وقد اهتم بجمع الوثائق الوفيرة حول هذا الحدث مستعربون وغيرهم، وكتبوا فيه أبحاثاً واسعة. وإحدى الوثائق التي لا شك في أهميتها، والتي يمكن أن تَطْلِعَنا على أعمال القرصنة المريعة التي جَرَت في أوائل القرن السابع عشر، هي في تقرير حول الجزائر وتونس، قدَّمه إلى دوق البندقيّة ج . ب . سلفاغو – وكان هذا كاثوليكيّ المذهب، تركيّ التبعية، وكان قد أُرسِل في مهمّةٍ خاصة إلى تينك المدينتين سنة ١٦٢٥. وقد اهتمّ بنشر تلك الوثيقة أ . ساتشردوتي في كتاب له عنوانه (إفريقية، أو بلاد البربر) يُعْتبر جهداً نفيساً يساعد على معرفة تلك الفترة التاريخية الحاسمة التي تقلّ فيها الأخبار. أما الإعادة الكاملة لبناء تاريخ البحر المتوسط في القرون التي كان فيها ذلك البحر يعجّ بالرعب القاتل الذي زرعه القراصنة، والمتاجرون بالعبيد، فقد عني بها س. بونو، مؤلف كتاب (القراصنة والبربر). في هذا الكتاب الذي استقبله النقاد بالثناء الواسع نجد دراسة دقيقة لتلك الأحداث التي تُعْتَبر بين أشرس الأحداث في تاريخ الإنسانية.

وإلى تاريخ البحر المتوسط في القرون الوسطى وفي العصر الحديث، سرعان ما تنبَّهَ الاهتمامُ التاريخي لدى المستشرق إيتّوري روسّي؛ وكان هذا من كبار المعنيّين بالدراسات التركية من المستعربين، وقد ساعده ذلك أكثر من سواه على

أن يُعْنَى باللقاء الذي تمّ بين عالميْن مختلفين في ذلك البحر، ليقوم بدراسة بعض أحداثه استناداً إلى وثائق مزدوجة. ومن أبرز الأدلة على ذلك مؤلفاتُه النفيسة التالية: (حكم فرسان مالطة في ليبيا، ١٥٣٠– ٥١) و(صلات جمعية الفرسان بطرابلس الغرب في القرون اللاحقة، ١٥٥١– ٩٨) و(المراسلات بين كبار معلمي جمعية القديس يوحنا في مالطة وبايات طرابلس، من ١٧١٤ إلى ١٧٧٨) و(الصلات بين كبار معلمي جمعية مالطة وبايات تونس، من ١٦٤٢ إلى ١٧٥٦) – الكتابان الأولان منهما أسبق من سواهما، وهما من أوسع مؤلفات روسّي حول طرابلس الغرب وأراضيه، التي سنشير إليها فيما بعد.

في السجلات الحكومية في المدن الإيطالية التي كانت لها، لأسباب مختلفة ولا سيما الأسباب التجارية، صِلاتٌ مع بعض البلدان العربية في المشرق أو في المغرب، وقد نجد وثيقة هنا وأخرى هناك، تُلقي ضوءاً على تلك الصلات. ومن ذلك مجموعة من الرسائل نشرتها ماريّا نَلّلينو بأصلها العربي وترجَمَتِها الإيطالية، وقَدَّمت لها بمقدمة تاريخية، وعلّقت عليها تعلقياتٍ وملاحظاتٍ واسعةً في بحث لها عنوانه (وثائق عربية حول العلاقات بين جنوا ومراكش في النصف الثاني من القرن الثامن عشر). ويبدو أن هناك كثيراً من الوثائق المأخوذة عن السجلات بِلُغاتٍ مختلفة، غير اللغة العربية، استفاد منها بعض الباحثين الإيطاليين، ممن لم يكونوا دائماً من المستعربين، في أعمالهم الرامية إلى معرفة العلاقات بين الحكومات الإيطالية قبل الوحدة، والدول البربرية في الجزائر وتونس وطرابلس الغرب. وفي هذا الصدد، ودون الاقتصار على تونس وحدها، كما أشرنا سابقاً، قدم لنا س. بونو مقارنات واسعة في بحثه (مصادر ووثائق إيطالية في تاريخ تونس). والاهتمام المتجدد الذي نَوَدّ أن نشير إليه ههنا، والذي تثيره تلك العلاقات التي ترجع إلى عهود متأخرة عن تلك التي ذكرناها آنفاً، بدأ بمقال للسيدة لاورا فيتشا قاليبري – إذا لم تَخُنّا الذاكرة – عنوانه (وثائق فاتيكانية تتعلّق بالجزائر – ١٨٢٥– ١٨٣٠) تَلَتْه بعد مدة قصيرة دراسة حول العلاقات بين (الكرسيّ الرسوليّ والبربر، ١٨١٤– ١٨١٩). وقد أضيف إليه بعد بضع سنوات

بحث بعنوان (علاقات غراندوقيّة توسكانا مع دولة تونس، ١٨١٨– ١٨٢٣)، كتبه أ . ريجّيو، وكذلك (سردينيا ودول البربر، من ١٧٩٤ إلى ١٨١٥) للمؤلف اي . بوسّي، ثم (علاقات إسبانيا وسردينيا مع دول البلدان البربرية – ١٧٧٨– ١٧٨٣) له أيضاً.

وعلى الرغم من أنه ليس من قصدنا أن نمضي في تدوين جهود الباحثين الإيطاليين الرامية إلى معرفة تلك العلاقات مع دول البربر، فإنه يبدو واجباً علينا أن نَذْكُر أن كثيراً من العلماء المتخصصين بالعصور الوسطى والمؤرخين قد قاموا بأبحاث في هذا الحقل، مستندين في الغالب إلى اكتشافات واسعة لوثائق مستَمَدَّة من السجلاّت. ومن هؤلاء الباحثين نذكر: ج . كابوفين – و ج . ڤيدوڤاتو – و ر . تشيسّي – و أ . غالّيكو؛ كما نذكر، بالنسبة إلى إيطاليا الجنوبية وصقلّية في نطاق السياسة في عالم البحر المتوسط: ج . لامانتيا – و ج . مونتي – وتشي تراسّيلّي– و ف . جونتا. ونحن حين نذكر هؤلاء، ليس لنا من قصد غير الإشارة إلى الاتجاهات، وكذلك المواقع المتعلّقة بجزء من كتابة التاريخ الإيطالية خلال الأعوام الخمسين الأخيرة بالنسبة إلى تاريخ البحر المتوسط.

* * *

القرن التاسع عشر:

بالقرن التاسع عشر – وهو نقطة الوصول، بالنسبة إلى هذه المراجعة السريعة – تنتهي فترة الركود، أو الانحطاط، في العالم العربي، وتبدأ بعد ذلك فترة التحرّر التدريجي من السيطرة العثمانية المسؤولة مسؤوليةً مباشِرَة عن استنزاف المقدرة على التطوّر لدى شعوب الشرق الأدنى، والمغرب، نتيجة للمناخ الإداري التركيّ المرهق الذي استمرّ أكثر من ثلاثة قرون. وفي هذه اليقظة يساهِمُ الغرب بوجوده في مصر في نهاية القرن الثامن عشر، بحملة نابوليون، التي وضعت أمام العرب مثالياتٍ تختلف كلّ الاختلاف عمّا عرفوه في الماضي القريب الجديب،

وتدفعهم إلى الأخذ بأسباب الوعي القومي، تمهيداً لقيام الحركات الثائرة ابتداء من الحرب العالمية الأولى. وكان بعض البلدان العربية، منذ بداية القرن التاسع عشر، قد اتّجَه إلى الخروج من الحكم العثماني الذي استمر أكثر من ثلاثة قرون، ليصل إلى استرداد بعض ملامحه القومية الأصيلة. ولذلك نرى من الأنسب والأنفع من جميع الوجوه ختام القسم الأخير من هذه المراجعة، مكتفين بذكر جهود الإيطاليين العلمية في بعض الحقول الفردية.

من السهل الحدس أن الفرنسيين قد ساهموا مساهمة جليلة في كتابة تاريخ البلدان المختلفة، منذ عهد الفتح العربي حتى الأحداث السياسية المعقدة التي انتهت هنالك بالاستعمار الفرنسي للجزائر وتونس، والاستعمار الفرنسي والإسباني للمغرب، وعلى الأخص في الوضع الإداريّ في تلك المناطق الثلاث (الفرنسية، والإسبانية، والدولية) فنذكر منها، للأهمية، كتاب (تقسيم مراكش – أحداثها السياسية والدبلوماسية) للباحث س . نافا – ولو أن هذا الكتاب ينتمي بشكل خاص إلى القرن العشرين، وليس من اختصاص هذه الدراسة – وأما في التاريخ الحديث، أو على الأصح في فترة تاريخيّة محددة منه، فنذكر (إسبانيا والمغرب، ١٨٤٤ – ١٩١٢) للباحث أ . فيستا؛ وكذلك كتاب (وجها المغرب) للمؤرخ م . جاميرو، وهو أكثر تحديداً. وحول الجزائر – والذي لدينا عنها قليل – نذكر (الحرب الجزائرية التونسية عام ١٨٠٧، في مذكرات دبلوماسي هولندي). وهناك كتاب آخر شامل هو (تاريخ الجزائر) للمؤرخ ر . راينيرو، الذي أولى اهتمامه أيضاً للحركة الوطنية الجزائرية. وأما التزامات فرنسا في شمالي أفريقيا فقد خصص لها ف . دي لويجي كتاباً. وأما الاستعمار الفرنسي لإفريقية الشمالية، والتدخّلات ذات الطابع الدبلوماسي، التي سبقتها ورافقتها وتلتها مؤسسات سياسية واجتماعية ودينية في كل البلدان الأربعة (الجزائر، وتونس، ومراكش، وليبيا)، والتغيّرات التي

جرت على أثر اتصالها بالغرب، فإننا نجد لها كلّها تصويراً وافياً في كتابين قيّمين للمؤرخ اي . دي ليوني. وقد استفاد المؤلف إلى حد كبير – فيما يتعلق بمراكش خاصة – من وثائق جديدة عَثَر عليها في السجلات الحكومية في جنوا، وليفورنو، ونابولي، وتورينو. وهذا الباحث عينه كان من قبل قد وضع كتاباً حول (سياسة الوطنيين في أفريقيا الشمالية الفرنسية)، ومقالاً حول (مشكلة الوطنيين ومشاكل اجتماعية في الجزائر). وأكثرَ عدداً مما تقدم كانت كتاباتُ الباحثين الإيطاليين حول تونس. وكان بعضهم مدفوعاً بعامل "المدافعة" عن أزمنة أخرى، فلم يكن من الممكن تقييم أعمالهم هذه تقييماً مجرداً. وكان بعضهم الآخر يتميّز بالاتزان المرموق، لتَجَرُّدهم عن التعصّب "للقضيّة الإيطالية" التي طُرِحَت خلال الحرب العالمية الثانية. ومن المنطقيّ أن يكون القُطْرُ المغربي الذي ازدادت فيه اهتمامات مستعربينا ومؤرّخينا هو ليبيا، وعلى الأخص طرابلس الغرب. وفي تاريخ هذا البلد من الفتح العربي (٦٤٢) إلى الاحتلال الإيطالي (١٩١١) ترك لنا ايتّوري روسّي عملاً رائعاً لإعادة بناء هذا التاريخ. وقد أكمل كتابه هذا عام ١٩٢٨ تقريباً، ولم يُنْشَر إلا بعد وفاته، منذ بضع سنوات فقط[٢]. وهو أوفى كتاب وأدقُّه في هذا الموضوع – وهو في القسم الحديث منه يقوم بديلاً عن كتاب (طرابلس الغرب من عام ١٥١٠ إلى ١٨٥٠) للكاهن الفرنسيسكاني الأب كوستانتسو دابيرنيا، ويضيف إليه تحسينات قيمة – وقد استند في كتابه هذا إلى العديد من المصادر العربية والتركية، مع دراسة نقديّة واسعة لها، كما رجع إلى وثائق وسجلّات غير منشورة. فجاء كل فصل من فصول الكتاب التسعة عشر تصويراً وافياً مُشْبَعاً، وقائماً على تفكير عميق في الأحداث التاريخية، والتاريخية السياسية خلال ثلاثة عشر قرناً.

---

(٢) قام الأديب الليبي خليفة التليسي بترجمة هذا الكتاب إلى العربية، ونشره في بيروت، سنة ١٩٧٤ (ع . ن .).

ولم يُعْنَ بالتعميمات، بل اعتَمَدَ دائماً اعتماداً دقيقاً على النصوص. والذين عرفوا ايتّوري روسّي معلِّماً لهم – كما عَرَفَه كاتبُ هذه المراجعة – يشهدون شهادة أمينة بعدائه لكلّ شكل من أشكال الحلول الوُسطى بين البحث العلمي الجادّ والهواية الارتجالية.

إن الإشارة إلى المصادر العربية التي استَمَدَّ منها الباحث المذكور موادّه الأولية لتاريخ ليبيا هذا، ولعدد آخر من الأبحاث، يحدونا إلى أن نذكر – حتى قبل هذه الأبحاث – ترجمته الدقيقة لكتاب (تاريخ الوقائع العربية الليبية، لابن غلبون) وما عَلَّقه عليه من هوامش وملاحظات. وهذا الكتاب ينفرد من بين المصادر العربية الأخرى لتاريخ ليبيا، ليس فقط بامتداده إلى سنة ١٧٣٢، بل باشتماله أيضاً على أخبار لا توجد في سواه، حول الحياة الفكرية المحلّيّة، ابتداءً من الحكم العثماني. ونرى من لغو القول تأكيد أهمية الخدمة التي قدمها روسّي للباحثين من غير المستعربين في تاريخ ليبيا؛ فقد كانت ترجمته للكتاب المذكور من أهم المراجع في تاريخ ليبيا. ومن سلسلة كتابات هذا الباحث حول ليبيا، وهي تؤلف حقلاً خاصاً في إنتاجه الضخم النفيس، نشير كذلك إلى كتاب له حول (فَزّان وواحة غات)، وإلى صورة سريعة من (تاريخ ليبيا من الفتح العربي إلى سنة ١٩١١) حيث تعطينا لمحة موجزة، حسنة الشرح، حول ذلك التاريخ.

هنالك صَفٌّ كثيف من الباحثين الإيطاليين الذين قرنوا أسماءهم بمشاركات في الموضوع عينه. ومن بين هؤلاء يجدر بنا أن نذكر كذلك ر . ميكاكّي، الذي كَتَبَ بحثاً تاريخياً حول (طرابلس وليبيا قبل الاحتلال الإيطالي) وكتاباً بعنوان (ليبيا تحت حكم آل قَرَمَنْلي). وآل قرمنلي هم أسرة اهتم بها كذلك مِنْ بَعْدِه الأب كوستانتسو بيرنيا، الذي تَقَدَّم ذكره. ولأجل وضع الكتاب المذكور استعان

ميكاكّي – وكان موظفاً كبيراً في الإدارة الاستيطانيّة حينئذ – بموادّ وفيرة غير منشورة، كانت متوافرة في السجلات الأوروبية، وتتعلّق بليبيا تحت حكم الأسرة القرمنلية (١٧١١–١٨٣٥)، وقد جاد بوضعها تحت تصرفه ب . توسكي، وكان قد وضع لها كشفاً غنيّاً بعنوان (المصادر غير المنشورة في تاريخ ليبيا). وهناك إشارات أخرى إلى الوثائق المحفوظة في السجلات الرسمية قَدَّمَها بعدئذ س . بونو. وهنالك عدد كبير آخر كبير من المؤلفات حول تاريخ ليبيا نترك ذكرها للمقدّمة التي وضعها روسّي لكتابه (تاريخ طرابلس) ولما ألحقه من إضافات ببليوغرافيّة بمختلف الفصول. وأما ما له صلةٌ مباشرة بالسنوسيّة – وكانت هذه قد دَخَلتْ منذ منتصف القرن الماضي دخولاً بارزاً في الأحداث التاريخية في بُرْقَة وطرابلس – فنتركها إلى الإشارات الببليوغرافية التي تضمَّنَتْها كتاباتُ كارلو نَلّلينو، وألبيتّي حول هذه الجماعة الدينية.

* * *

أسرة محمد علي:

ونأتي الآن إلى محمد علي، رأس الأسرة التي حكمت إلى عام ١٩٥٢، والرجل الذي كان، بإجماع الآراء، معيدَ مجد مصر بعد سقوطها في أوائل القرن الماضي في حالة من الفوضى، كانت الحملة النابوليونية قد خفَّفَتْ من حِدَّتها آنيّاً فقط. لقد كانت جهود الباحثين الإيطاليين حوله كبيرة، غير أن القليل منها ذو قيمة حقيقية جديرة بالتقدير. ومن بينها جميعاً تتميز أعمال أ . سَمَّارْكو، الذي عَهِد إليه الملك فؤاد الأول بتكملة الوثائق الدبلوماسية الإيطالية المتعلّقة بِمُلْك محمد علي، ودراستها ونشرها. وكان اي . غريفّيني قد بدأ بجمع هذه الوثائق وإدارتها، وهو مستشرق متخصّص بالدراسات التركية، كان قد استُدعِيَ إلى القاهرة ليتولّى إدارة

مكتبة القصر الملكي. ومن هذه المجموعة النفيسة غير المنشورة وُلِدَ القسمُ الأهمّ والأكثرُ أصالة من إنتاج سَمّارْكو التاريخيّ المتعلق بمصر الحديثة، ومن أبرزها: (رحلة محمد علي إلى السودان، من أكتوبر ١٨٣٨ إلى ١٥ مارس ١٨٣٩)؛ وكتاب (مملكة محمد علي في الوثائق الدبلوماسية الإيطالية غير المنشورة) بأجزائه الأحد عشر. لأجل هذه الكتب، وغيرها مما تلاها، قام المؤرخ بفحص قسم كبير من الوثائق العشرة الآلاف المحفوظة في السجلات الحكومية في نابولي، وفلورنسا، وتورينو، والبندقية، وفيينّا، مدقِّقاً ومقارِناً بينها، ومستخلصاً منها حقائق وتقييمات تاريخية جديدة كل الجدَّة بالنسبة إلى تلك التي كانت تتميَّز بها الكتابات التاريخية الشرقية والغربية حينذاك، بسبب نقص الوثائق الصالحة.

ومن المؤسف أن اندلاع الحرب العالمية الثانية، ووفاة الباحث بعدئذ، كانا السبب في عدم إنجاز العمل في عدد آخر من الأجزاء التي كانت متوقَّعَة لهذا الكتاب، عدا الأجزاء المنشورة منه. ولقد كان سَمَّارْكو كذلك مؤلِّفاً للجزء الرابع من الكتاب الفرنسي (موجز تاريخ مصر) حول مُلْك عباس، وسعيد، وإسماعيل؛ وكذلك المجلد الثالث من كتاب ذي خمسة مجلدات، تبدأ من أوائل القرن التاسع عشر، وتصل إلى الاحتلال البريطاني لمصر سنة ١٨٨٢، وكذلك (مُلْك الخديوي إسماعيل، من ١٨٦٣ إلى ١٨٧٥) باللغة الفرنسية. وهذه كلّها أعمال أنضجتها الدراسة الجاهدة للوثائق المنشورة وغير المنشورة، المتعلقة بالقرن التاسع عشر من التاريخ المصري.

وفي هذا القرن نَجِدُ تمهيدات لِحِوارٍ مع أوروبا، كان قد بدأ من قَبْلُ في زمن محمّد علي، واستأنفه من بعده خلفاؤه بكثير من الاهتمام، مما ساهم في وضع مصر على رأس البلدان العربية، في الحقل السياسيّ، والسياسيّ الثقافيّ، وبمحمد علي يُخْتَمُ كتابُ (تأسيس مصر الحديثة، والمساهمة الإيطالية في نهضتها

السياسية والمدنية – فجر النهضة المصرية– ١٧٦٠– ١٨٤٠)؛ وهو رؤية شاملة ورائعة قدّمها أ . فيرتسي. وكذلك كتاب (القضيّة المصرية من سنة ١٧٩٨ إلى ١٨٤١) تأليف تشي . جيليو، المعروف بأبحاثه الأخرى في التاريخ والسياسة المتعلّقَين بالاستيطان، أو الاستعمار. ومن هذه الفترة عينها انطلق باولو منغانتي في كتابه (مصر الحديثة)، الذي يمكن اعتباره واحداً من أكمل الأبحاث وأحدثها في الأحداث التي جرت في منطقة الدلتا من القرن التاسع عشر إلى ثورة ١٩٥٢.

ولا تختلف زَمَنِيّاً نقطة الانطلاق في الكتاب الآخر (مصر من أحداث ١٨٨٢ إلى أيامنا هذه) بِجُزْأَيهِ، للباحث ب . أليبتي؛ وقد عني في هذين الجزأين عناية جادة بتحديد وجه مصر خلال الأعوام الثمانين الأخيرة من تاريخها. وانطلاقاً من مقدرة المؤلف الفريدة، وتحليلاته الدقيقة، وبحثه الجادّ، استطاع – وهو موظف كبير في وزارة الخارجية الإيطالية– أن يكمل كتابه في عدة سنين، كما يبدو من مقالاته المنشورة في مجلات مختلفة، حول أزمنة معيّنة من تاريخ مصر الحديثة.

ويمكننا أن نذكر بين المصادر التاريخية ذات الأهمية القليلة أو الكثيرة، إضافةً إلى كتيّب للباحث أو . توسكي، أعمالاً إيطالية عديدة تساهم في معرفة تاريخ مصر بين قرنين. وقد أغلفنا الإشارة إليها لأن مؤلفات منغانتي قد أشارت إلى أهمّها في ثنايا الفصول.

قناة السويس:

وقناة السويس، التي ولدت في القرن التاسع عشر باهتمام دَوْليّ ومصالح مشتركة، وبمباركة الجميع، ولم تلبث أن أصبحت مثار جدل محتدِم على أثر تأميم عبدالناصر لها في صيف سنة ١٩٥٦؛ لقد كَثُرَتْ حولها الأبحاث والدراسات والمقالات، ليس فقط مِن قِبَل المؤلفين الذين سَبَق ذكرهم، بل قِبَل كثيرين آخرين

وقفوا العديد من المقالات على هذه المشكلة الشائكة، لكي يبرزوا بشكل خاص تعقيداتها السياسية والقانونية. جميع الظروف التاريخية الماضية والحديثة التي كان فيها ذلك الممرّ المائي ذا دور حاسم من حيث النقل العسكري كانت تبدو مناسبات تَفْرِض على الباحثين خوض ذلك الموضوع. وكما أن الحرب الإيطاليّة الحبشية، عام ١٩٣٥، أوحت إلى سَمَّارْكو بأن يكتب مقالة (الحقيقة حول قناة السويس)، وعنوانه يرينا نيَّةً سابقة مبرمَجَة لدى المؤرخ لإلقاء الضوء على قضايا ذات أهمية رئيسية، كذلك أوحت إليه الحرب العالمية الثانية بوضع كتابه (السويس – تاريخ ومشكلة). ولكنه في هذه المرة أراد أن يوضح لنا بعض الوجوه بشكل أوسع، واستناداً إلى وثائق مصرية وأوروبية غير منشورة. وقبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية مباشرة، خرج إلى النور كتاب بعنوان (قناة السويس والعلاقات الانجلو مصرية) للباحث ب . أليبتّي؛ وكتاب (السويس) وفيه أَعادَ اي. أنكيبري طبع كتاب كان قد نشره قبل ذلك بعامين، وأكمله بأحدث المعلومات. والببليوغرافية الغنية التي يتضمَّنَها هذا الكتاب تُغنينا عن أية إشارة أخرى.

السودان:

وهناك عبء آخر في التاريخ المصري الحديث، وقد ظَلَّ كذلك عشرات السنين؛ ذلك هو السودان الانجلو مصري؛ وهو حكم مشترك عاصف كان قد تَقَرَّر منذ سنة ١٨٩٩ لذلك القطر الواسع جنوبي نهر النيل، ولم يكن أقلَّ من قناة السويس إثارة للنزاع والفوضى بين حُكْمين متخالفين. وقد اضطر الإنجليز والمصريون إلى النزول عند مطالبة أهله الشرعية بالاستقلال. وأُعْلِنَ الاستقلال رسميَّاً في ديسمبر ١٩٥٥. وقد خصص سَمَّارْكو، ومِنغانتي، وأليبتّي، في مؤلفاتهم

المذكورة آنفاً، فصولاً لهذه القضية، فأوضحوا ببراعة فائقة الوجوه البارزة المختلفة، وأصدروا في ذلك تقييمات موضوعية. وقد قام اي . أنكييري، و أو . توسكي بتحليل أحداث الأمس واليوم في مصر: الأول فعل ذلك بكتابه (تاريخ السياسة الإنكليزية في السودان، ١٨٨٢– ١٩٣٨) والثاني في صورة سريعة للقضية أجملها في كتيّب يؤلف مع كتابه السابق حول مصر لوحة عضوية ذات وجهين. وأوسع من ذلك كتابٌ وَضَعَهُ أ . ميلّليني بونشه دي ليون، عنوانه (تاريخ السودان الشرقي وبعض وجوهه – السودان الانجلو مصري؛ وهو جدير بأن نذكره بين الأعمال الحديثة جدّاً، وبالتالي بين أوفاها وأشملها، ولكنه يخلو من أية إشارة إلى الوضع الذي انتهى إليه البلد حالاً بعد الحرب العالمية الثانية، حين احتدم النزاع بين الوحدويين، الذين كانت القاهرة تشرف على تنظيمهم وتوجيههم لدعم الوحدة مع مصر، ومعارضيهم الاستقلاليين.

ختام:

بهذه الإشارة إلى أهم الأحداث التاريخية والانعطافات السياسية في العالم العربي في نهاية القرن التاسع عشر، التي أوضَحَتْها أيضاً إيضاحاً كافياً الفصولُ الأخيرة من الأبحاث التاريخية العامة والجزئية، نختتم هذه المراجعة السريعة لأهمّ الجهود الإيطالية في حقل التاريخ العربي خلال الأعوام الخمسين الأخيرة. وقد لا يكون الحصاد وافراً في بعض الحقول، ولكنه وافر فعلاً في حقول أخرى. وقد جمعناه مما عُنيَ بتأليفه المستعربون؛ وهم ذوو فضل في أنهم كثيراً ما هيأوا للباحثين الآخرين إمكانية الوصول مباشَرَةً إلى المعلومات، أو بالأحرى قَدَّموا لهم المَثَلَ في التخصُّص المِهْني، والانقطاع إلى دراسة عالَمٍ ظَلَّت البحوثُ الخاصةُ

بمسيرته التاريخية زمناً طويلاً تُعْتَبَر هامشيّةً بالنسبة إلى تاريخ الإنسانية الأكبر، ولكنه اليوم – أخيراً – لم يَعُدْ خارج نطاق الأبحاث العلمية المتخصصة.